

اجتهادات سمو العقل .. والإلحاد

يُسىء بعض المهتمين بتطور الأفكار والفلسفات والعلوم منذ القرن الثامن عشر فهم فكرة سمو العقل التي ظهرت أولاً في مرحلة التنوير خلال القرن الثامن عشر. يظنون أن هذه الفكرة، وغيرها مما يعبر عن معناها، ترتبطُ بنزعاتٍ إichادية تستبدلُ تقديس العقل بالمُقَدَّس الإلهي-الديني. وبينهم من يسهبون في مهاجمتها لهذا السبب، وقد يتجاوزون ذلك إلى رفض ما أطلق عليها نزعة إنسانية.

وربما تعودُ هذه النظرةُ الخاطئة إلى عاملين. أولهما أن فكرة سمو العقل تُنزعُ من سياقها التاريخي، فتُغفلُ دلالاتها فيه. فقد ظهرت، قبل كل شيء، في سياق معركة كبرى استهدفت تحرير العقل ليفكر ويتأمل ويبدع في كل مجال، أي يؤدي الوظيفة التي خلقه الله من أجلها، ومنعه القهر والقمع والظلم عنها طول تاريخ البشرية إلا قليلاً.

والعامل الثاني أنها تطورت في مجرى صراع ضد سطوة رجال دين استخدموا المُقدَّس أداةً للهيمنة على البشر وتعطيل عقولهم، أو تأميمها، ومن ثم التحكم في كل ما يتعلق بحياتهم. وكان طبعياً أن ترد في خطابات بعض المفكرين العقلانيين كلماتٌ وعباراتٌ يجوزُ تأويلها فتُفهمُ كما لو أنها موجهةٌ ضد الدين، وليس من يتاجرون فيه. وأسهم وجودُ بعض اللادينيين في أوساط المفكرين العقلانيين في إساءة فهم فكرة سمو العقل، برغم قلة عددهم مقارنةً بنظرائهم الذين لم يفقدوا إيمانهم الديني، أو لم تشغلهم هذه المسألة.

والحالُ أن فكرة سمو العقل كانت تعبيراً عن توق إلى تحريره، وإيماناً بقدرته. ولم تناقض المُقدَّس الديني، بل انسجمت معه في دعوتها إلى

التحرر من استعباد من يتصرفون كأنهم وكلاء عن الله وقيمين على الدين،
بما يعنى ضمناً تحرير البشر من كل عبوديةٍ إلا لمن خلقهم.

وربما يجوزُ القول إن فكرة سمو العقل كانت، بهذا المعنى، بحثاً عن
خلاص عقلانى من الهيمنة أياً كان من يمارسُها، وتأكيذاً للثقة فى العقل
ليكون الكائن البشرى سيد نفسه. وإذا كان هناك ما يؤخذُ عليها، فهو
الإفراطُ فى الثقة فى العقل، والرؤية الأحادية لدوره، وعدم إدراك أنه
يُستخدمُ فى الشر، وليس فى الخير فقط.